الأثافيُّ[1] الثلاث في مَطبخ الاستعمار

التقوى، وهي استشعار الخوف من الله طبيعة في الشعب الكادح غرسها فيه افتقاره الدائم إليه، واعتماده المطلق عليه، ورجاؤه المتصل فيه؛ أما الملوك والسراة فهم خليقون باستغنائهم عنه بطغيان الملك وسلطان المال ألا يخشوه وألا يرجوه إلا إذا حملوا على تقواه حملاً منذ النشأة بالتربية الدينية والثقافة الروحية والقدوة الحسنة. فإذا ولد السري أو الغني في مهد غير نظيف، ونشأ في بيت غير شريف، لا يجد أبًا يصلي ولا أمًا تستغفر ولا مربيًا يرشد، شب على غرائز البهيم: هوى من غير عقل، وشهوة من غير كابح، وسطوة من غير ضمير، وإذا مكن له بحكم الوراثة أو بفعل الظروف أن ينحط على عرش أمة، ستره عن عيون الشعب ثم استعان بغفلة الوعي القومي على أن يجعل العرش فرشًا والقصر ماخورًا والحكومة مطية والوطن ضيعة. ثم يتدفق في الفجور ويستهتر في الفساد لا يتقي الله لأن الشيطان يعدُه ويمنّيه، ولا يخشى الشعب لأن الجيش يحرسه ويحميه. حتى إذا انكشفت الأغشية عن البصائر فتنبه الغافل وأحس البليد وأدرك القطيع السائم المستغل أن قرونه الملايين أقوى من عصا الراعي الفرد، وأنه هو صاحب اللبن والصوف، ومالك المرعى والحظيرة، انتفض الشعب المظلوم المكظوم انتفاضة الأبي المريد فنفض عن جسده العَلق الماص والدود السام، وضرب ضربته القاضية فتدكدك العرش، وتدحرج التاج، وتقوض القصر، وعاد الطاغية الفاجر أصغر من أن يُنظر، وأحقر من أن يُذكر، وشيئًا من القذر الملعون، يجر على الأرض، أو يوطأ بالقدم، أو يقذف إلى الخارج، والمزية الوحيدة لهذا الضرب من الملوك أنهم يظهرون حين يريد الله أن يبدل نظامًا بنظام، ويديل دولة من دولة، لأنهم بفضل ما يجتمع لهم من ضروب الفساد، وما يصدر عنهم من فحش الاستبداد، يضغطون على مشاعر الشعب فينتبه، ويلحون على أعصابه فيثور.

من هؤلاء الغواة الضالين ثلاثة من الشبان الرقعاء وضعهم المستعمر المحتل على عروش أممهم بالكره منها، ثم ظل يسندهم ببأس الحديد. ويرفدهم بفيض الذهب.

---

(1) قلت: الأَثَافِيُّ هي الأَحْجَار الثَّلاَثَة يُوضَعُ عَلَيْهَا القِدْرُ لِلطَّبْخِ .

ويسلطهم على الأخلاق يفسدونها بما لا يليق، وعلى الأرزاق يبددونها فيما لا يحل، حتى قضى عبد الناصر على الاستعمار في أكثر الشرق الأوسط، فلم يبق إلا في بعضه يتسلل إليه في ثياب الخونة والعملاء، كما تتسلل الجراثيم إلى الأجساد على أرجل الذباب وأفواه الكلاب وقروح الفأرة، فوهى السند وانقطع المدد. وقضى الله على هؤلاء الصغار بما أفسدوا وبددوا وعربدوا أن يكون كل منهم آخر فرع يذوي ويسقط من شجرته الملعونة.

* * * * *

أول الثلاثة وأكبرهم كان ملكًا على مصر قبل يوم 26 يوليو سنة 1952، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين الله وعلى حرم الناس، بلغ من جرأته على الله أنه كان كما حدثني أحد بطانته المقربين إليه إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة خرج إليها من المضجع الحرام، فصلاها من غير غسل ولا وضوء، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد. وكان يقول: إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات العجيبة. وبلغ من جرأته على الحرمات أنه كان يغتصب الزوجة، ويقتل الزوج، ويسرق الدولة، ويسفه الحق، ويأخذ الرشا. ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى، حتى إذا استيأس الشعب وظن أن الليل سرمد، وأن الذل خلود، أظهر الله المصلح المنتظر من بين رجال الجيش؛ لأن العسكريين بحكم نشأتهم أصحاب فداء ومضاء، وألاف نظام وعمل، وأَحلاف شرف ومجد، يطلبون الحياة بالموت، ويغسلون الرجس بالدم، ويقرنون الرأي بالعزيمة، فرأى هو ورفاقه من خلال الظلام الكثيف المخيف عرش مصر يرتطم في الوحل، وجيش مصر يضطرب في الفساد، وشعب مصر يتمرغ في الذل، فشبوا شبوب النار الهادئة تقتل المكروب ولا تحرق المريض؛ وهبوا هبوب الريح اللينة تدفع الشراع ولا تفرق المركب، وأخذوا ذلك الملك الماجن من قفاه الغليظ وألقوه في البحر، ثم عالجوا أمر هذه الأمة بعلاج الرسول الكريم، فحطموا الأوثان كما حطم، وكرموا الإنسان كما كرم، وأزالوا الفروق بين الناس كما أزال، وأدالوا الفقير من الغني كما أدال، وقيدوا الحق بالواجب كما قيد،

وأيدوا الحجة بالسيف كما أيد، ثم أذاقوا الناس لأول مرة في تاريخ مصر نعمة الحرية والكرامة والمساواة.

* * * * *

وثاني الثلاثة وأمكرهم خليفة مزدك أوشاه إيران. نشأ نشأة فاروق، فلم ييسر لرقابة دين ولا رعاية خلق، ولم يهيأ لولاية عهد ولا وراثة ملك، وإنما أعجله كما أعجل حماه القديم الحكم الباكر عن تثقيف نفسه بالعلم وتهذيب غرائزه بالأدب، فلم يتعلق من الحياة إلا بأسبابها المادية الوضيعة، وجرى في حكمه لإيران على سياسة الخليع الوارث، لا يعرف من أمور ضيعته إلا الخزانة يفرغ ما فيها من يوم إلى يوم في جيبه، أما كيف يستعمرها ويستثمرها فذلك لا يعنيه، لذلك لا تسمع في إذاعة إيران ولا تقرأ في صحف العالم أن الشاه أنشأ مدرسة أو بني مستشفى أو عبَّد طريقًا أو أقام جسرًا أو أصلح فاسدًا أو عمّر خرابًا، وإنما تسمع كل مساء وتقرأ كل صباح خبرًا جديدًا عن زواج الشاه وطلاق الشاه وخطبة الشاه وعشق الشاه، وعن رحلته المباركة إلى هوليود، وجولته الموفقة إلى الريفييرا، وسفرته المربحة إلى لندن، وزورته المريبة إلى الأردن، أما الأمة الإيرانية والأمة العربية فلا تدخلان في دنياه، لأن التخلف العاجز في أمته يخزيه، ولأن التقدم المعجز في أمتنا يؤذيه، وهو يحرص على أن تعيش طهران في الظلام لتعمى، ويخشى أن تسطع في أفقها أضواء القاهرة فتبصر، ولكن هيهات أن تحجب الشمس بالأكف، أو يدفع السيل الأتي بالحواجز. إن ساعة الشاه آتية لا ريب فيها، لقد تعدى حدود الله وتحدى إرادة شعبه. نصر الاستعمار وخذل الحرية وناوأ العروبة ومالأ الصهيونية، وخرج على قرارات باندونج وإجماع المسلمين، فاعترف لإسرائيل الأفاقة باغتصابها فلسطين العربية المسلمة؛ وبطردها مليونًا من أهلها إلى العراء القفر ليعيشوا في المضارب والملاجئ عيش الحرمان والذل، وهم ينظرون إلى ديارهم وأموالهم يعبث فيها الواغل الدخيل ولا يملكون لأنفسهم ولا لها إلا الرجاء في العرب والأمل في أمثال هذه الفهاوي الذي يسمونه الشاه، وهو أهون على الله من كراع شاه.

والذي بعثه على كل هذه المخازي بعده عن الإسلام، وحقده على العرب، وكيده للوحدة، وحرصه على بقاء الاستعمار ليأمن ثورة الأحرار وعودة مصدق، ويضمن وفرة الدولار ومتعة العيش.

* * * * *

وثالث الثلاثة وأحقرهم (عاهل) الأردن وحده. وجاهل العالم كله! أصغر تاج على أصغر عرش، وألأم ملك على أكرم شعب، وأنجس إنسان على أطهر أرض! ولكن الاستعمار نفخ فيه فدوَّى كالطبل وصوَّت كالبوق، وتوهم أنه بهذه النفخة الكذابة والطنطنة الفارغة يطاول الجمهورية العربية المتحدة، ويصاول زعيم العروبة العملاق فطن طنين البعوضة، ثم اشتد واحتد فنق نقيق الضفدع، ولكنه لم يستطع أبدًا أن يخور خوار الثور، ولا أن يزأر زئير الأسد.

من أين ينفق (عاهل) الأردن على لياليه الحمر، وعلى عشيقاته الشقر والسمر؟ ومن أين يأتيه المال الذي يصبه صبًا في خزائن البنوك المأمونة، ويشتري به الحرس الخاص من البدو الجياع؟ من ثمن ما باع من استقلال الأردن، وما خان من أمانة فلسطين، وما أوهن من وحدة العرب، وما نبح (في الهواء) على عبد الناصر، ولكن الليالي الحمر لن تعصمه من الأيام السود حين تقبل، والحرس البدوي الحافي لن ينقذه من براثن الشعب ساعة يغضب، والأموال المهربة إلى أوروبا لن تفديه من المنون يوم تغول.

* * * * *

هؤلاء الفجار الثلاثة هم الأثافي الثلاث في مطبخ الاستعمار. ركب عليهم قدوره الضخم وجعل في بعضها الدسم وفي بعضها السم، فتدسم قوم وتسمم آخرون، وبات الأبرار الأحرار على الطوى حتى نالوا بصبرهم وجهادهم كريم المأكل.

فأما ثالثة الأثافي فقد إطاحتها ريح ثورتنا المباركة، وأما الأثفيتان الأخريان فلا تزالان تحاولان حمل القدور وإشعال التنور وتوزيع الطعوم والأطعمة، ولكنهما ظلتا باردتين على الرغم من الوقود الجزل بالجنية والدولار، وعما قريب تسحقهما أقدام الثوار فتذروهما الرياح مع الاستعمار.